تسليم نقدي اجرائي

متوالية التأزم والانفراج
في قصيدة (الحسين عليه السلام)
لحمد محمود الدوخي

Titling as an Edition Haven
Reading on the Patterns of the Universal Text

أ.د. عباس رشيد الدده

جامعة بابل

كلية التربية للعلوم الإنسانية

Prof. Dr. Abbas Rashid Al-Dada

College of education for humanist sciences , University of Babylon

تسلیم نقدی اجرائی

ملخص البحث

حاول البحث رصد تقنية من أظهر تقنيات شعرية الشاعر الدكتور حمد محمود الدوخي؛ وهي تقنية التأزم والانفراج، التي تتوزع على محورين؛ يحصل أولهما على مستوى بنية النص، حين يتقصّد الشاعر بث بؤرة توتر، يُعرض فيها الانزياح، وهو خروج على النمط المتداول في تلقّي النصّ الشعري، وما دام هذا الانزياح معروضاً، من دون أن ينبري له متلقي النص، مصححاً له، ليعود به إلى تأويل ينتفي به ذلك الانزياح، محدثا الانفراج الذي ينتمي به النص إلى الشعرية، وهو ما يحص عادة على مستوى تلقي النص.

وفي شعرية حمد الدوخي، تنبجس هذه التقنية لتعبّر عن نفسها في أكثر من تجلٍّ، وتتوالى على النحو الذي ما إن يغادرنا فيه مكمن لها، حتى يلقانا غيره، وكأنها تتناسل، ولأنها عصب شعري نابض، فإنها ستطوّح بالنص إلى مديات قصية مسجّلة له امتيازا شعريا، يحفّز المتلقي على التلذذ برحلة شيّقة من التأويل والاستكشاف.

وقد اختار البحث قصيدة (الحسين) عليه السلام لتكون ميدانا للكشف عن فاعلية تلك التقنية في شعرية الشاعر حمد الدوخي، ولا شك في أن وقوع الشاعر تحت ضغط الانبهار بشخصية الإمام، وكون تلك تلك الشخصية قد بلغت بصاحبها الغاية في سموّ المنزلة، والذروة في الكمال الإنساني، فقد أتاح ذلك لنص الشاعر ثراء دلاليا، وفضاء تأويليا خصبا أنعش التلقّي، فضلا عن الخصوبة التي تجود بها تلك التقنية موضوع البحث.

Abstract

The current study endeavours to trace the most salient technique in the poeticism of the poet ,Hamad Mahmood Dukhi , convergence –divergence technique ramifying into two axes , the first tends to be pertinent to structure . Here the poet transpires the sense of suspense in light of divergence as there is periphrasis the interlocutor never takes cognizance of and reverts into the acts of justification to trigger the convergence, poeticism, which is of a text response level.

In his poeticism such a technique sprouts into shades of portrayals; no sooner does it vanish than there could be another , it runs as an act of propagation : since it is a poetic sinew , it surpasses all the frontiers of expectation to seal a poetic landmark tantalizing the interlocutor to sail in justification and prospection .

For much efficacy the study dissects the Al-Hussein, a poem, into its mere structure to fathom the poeticism of Hamad Dukhi. Without doubt , the poet falls under the spell of imam Al-Hussein and casts into admiration and veneration in light of human perfection . Such grants him a pragmatic precocity , prolific justification resuscitating the response : the efficacy of the meant technique prevails in the text.

مثلما يصدق توصيف الشعريات بأنها ضروب شتى؛ فإن النصوص تأخذ حظا منها بقدر، أو بنحو ما، والأقدار والأنحاء متفاوتة متباينة، وهي ضروب شتى، أيضا.

وإن من النصوص من يكتسي بشعرية تتدرج فاعليتها صعودا، حتى تصل إلى قمة هرمها الشعري، وتلك شعرية يتلقاها المتلقي بتدرج حتى تصل به إلى ذروة يكون قد هيأ له متّكأها.

ومنها ما يسير معه التلقي ببرود وعلى وتيرة واحدة، حتى يكون مع خاتمة تفاجئه بضربة شعرية تندلق عليه دفعة واحدة.

ومنها ما تستنزف شحنتها في سلسلة سيرها القممية، صعودا ونزولا، على نحو يتوقع القارئ آليتها، فينتظرها وتنتظره.

ومنها التشعير على نحو لازب، يغطي سير النص كله، حين يستهدف الشاعر اللغة، فتكون مفرداته كلها محملة بشعرية تدعو متلقيها إلى مراودتها، وهي تحسن التمنّع والتفلّت.

ومنها ما يمر المتلقي في محطات فيها هادئا، ثم يحدث ما يمكن أن اسميه التشعير بأثر رجعي!، فيُستثار أولاها بأخراها، أو بأواسطها، وثناياها.

ومنها شعرية هذا النص للشاعر حمد الدوخي؛ حيث توزع الكثافة الشعرية في بؤر أو منبهات شعرية، على نحو يعيد إلى التلقي تأزما جديدا، بعد أن يكون المنبه السابق قد أسلمه إلى الانفراج ، وأعاد له انسجامه؛ بمعنى أن ألية عرض الإنزياح

ونفيه، تجد تطبيقا لها مكرورا؛ فما أن يستنفر النص عارضا جرعة انزياح تحدث تأزما قرائيا، فارضا على المتلقي السعي إلى الوصول به إلى نفي ذلك الإنزياح عبر تصحيحه في القراءة النقدية الفاعلة، بلحاظ أن النص قبل أن ينتهي من الوصول إلى اللحظة الثانية، يكون قد بذر في تربة الوصلة الشعرية التالية نواة لعرض انزياح جديد سيجد لاحقا نفيه، وهكذا..

النص:

ليسَ الحسينُ إماماً
بعضُ الحسينُ* أئمَّةْ
ليسَ الحسينُ إماماً
ظلُّ الحسينُ* أئمَّةْ
قد جاء فرداً ولكن
لوحده صار أمَّةْ
حتى بحالة جرٍّ
ترى على النون ضمَّة
الخيرُ:_ حبُّ حسينٌ
وغير ذاكَ مذمَّةْ
بخلق وجه حسينٌ
قد أكمل الله حُلْمَهْ
يصاحب الله صحبهْ*
يخاصم الله خصمهْ
يا ابن النبوَّة هبني
نصحاً، فصمتُكَ حكمةْ

يا مثل جدِّك روحاً

ومثله جئت رحمةْ

المجد كلمة حقٍّ

وأنت حقٌّ وكلمةْ

يا نور بيت عليٍّ

وليس في البيت عتمةْ

نوراً على النور تبقى

يا أطهر الناس ذمَّة

لا تغمضِ العين حتى

لا يصبحَ الكون ظلمةْ

مولاي وجهي مرايا

فاعطِ الملامح بسمةْ

والقلب دربُ رعاةٍ

واختارك الناي نغمة

أعداؤك اليوم عارٌ

ونـاصروك أئمةْ

الملكـوتُ سماءٌ

وليس غيرك نجمةْ

ماذا وأنت حسينٌ

وشسعُ نعـلكَ قمَّةْ (1)

---

* خطأ متعمَّد لان الممدوح اكبر من اللغة

فشعرية هذا النص، انبنت على توزيع زخمها على أوصال القصيدة، وهي كثيرة؛ على نحو محطات شعرية ترفع منسوب فاعليتها على نحو هرمي

وإذا صح لنا أن نقول أنها تمفصلات شعرية، موزعة على نحو ما، وإنها في هذا النص لن تجد ما يوجهها باتجاه بؤرة موحدة، فإننا لم نرد انها شعرية مفككة، بل هو نحو من أنحاء تشعير النص الشعري في تجربته.

وحين نتحدث عن مفصل شعري أو ضربة شعرية فإننا لا شك نتحدث عن اللحظة الثانية، من لحظتَي تشعير الجملة اللغوية؛ وهي لحظة نفي الإنزياح المسبوقة بلحظة عرض الإنزياح؛ وهذه اللحظة رهينة بوعي المتلقي وقابليته على التلقي الإيجابي.

تلقانا الجملة الأولى وهي تنطوي على مفصلية شعرية تشكلت جراء تصادمات في سوح تلقيها؛ منها أنها تشكل صدمة مع مألوف سائد راسخ تناقته كتب الفريقين، وتواتر ورسخ في المعتقدين، من أن الإمام الحسين عليه السلام إمام قام أو قعد؛ فهو على وفق كون القائل صلى الله عليه وآله وسلم، لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، منصوص على إمامته بأمر إلهي صريح، يكون تصديقه ضمن الواجب الشرعي. فما بال من يصرح بخلافه، فيقول بفم ملآن:

ليس الحسين إماما

إنها إذن (مفصلية) شعرية تنبني على صدمة معرفية مخالفة، وسرعان ما يهدّها بالتصريح بما من شأنه أن يلاشي الصدمة الأولى، ويخفت جذوتها، ليسلمنا إلى جذوة أخرى قوامها وعمادها المبالغة في الإيمان بإمامته على النحو الذي يبالغ فيه بالتصديق فيعد جمعَ أئمة:

بعض الحسينُ أئمة

ولا يفوت الشاعر أن يزرع داخل هذه المفصلية الشعرية التقليدية – كونها تقوم على أساس المبالغة الشعرية– مفصلية أخرى تهز جذور النحو العربي بتمردها عليه؛ إذ يضبط نون اسم الإمام بحركة الرفع وهي الضمة، وحقه النحوي الكسرة لإضافتها إلى (بعض).

ولأن الشاعر والنص في ذهنه محملان بشعريات لا بشعرية واحدة، يعيد علينا المفصلية الأولى، ليستدر ما يكون منها لاحقا من مفصلية أخرى

ليسَ الحسينُ إماماً

ظلُّ الحسينُ* أئمَّةْ

وإذا تحققت الصدمة بنفي الإمامة عنه أصلا، فاستدرك الشاعر لينسبها لا إليه فحسب بل إلى أبعاضه، وتلك الأبعاض قد تقرأ قراءة مادية فيستحضر التلقي ولده من العترة المطهرة وهي السلالة الذهبية لبقية أئمة أهل البيت عليهم السلام التي كرمه الباري عز وجل بأن جعلها من نسله. وقد تقرأ قراءة روحية فيستحضر التلقي السيرة العطرة له والعصمة التي لفت كل مفاصل شخصيته قولا وفعلا، فتغدو جزيئاتها كلها على شاكلة كلّيّتها (أئمة) أيضا، فما يصدق على الكل يصدق على الجزء.

ثمّ إن الشاعر سيتلو علينا مجددا شعرية جملته الأولى محملا إياها بتأزم يلهب التلقي، ليسلمنا إلى انفراج شعري مختلف؛ سيكون هذه المرة معنيا بمعنويات من نوع آخر، إذ يسبغ على خارجيات الحسين عليه السلام، إمامة من النوع ذاته، حيث يغدو ظله إماما، بل (أئمة)

وإذا كان السياق قد أوصلنا عند هذا المفصل، إلى احتشاد إنساني نوعي في شخص الحسين ع، فإن ما سيعقبه من مفصل سينوع في تشكل هذا الحشد، على نحو آخر، بعد أن يقرر فردانيته البدئية:

قد جاء فرداً ولكن

لوحده صار أمَّةْ

هنا المجيء ذو شعب دلالية؛ فقد يكون في صميم مجيء الإنسان إلى الدنيا فردا، وهو حال يصدق عليه كما يصدق على سائر البشر، وهذه الدلالة تنطّ إلى ساحة التلقي بلحاظ أن الأئمة المعصومين من سلالته، والإمامة في ذريته.

والدلالة الثانية أنه عليه السلام تفرّد بمجاهرته بالحق، ونهض وحده بوجه الطغيان والظلم والذلة، في زمن الهيمنة الأموية، فعلى صوته المفرد، وهفا لجرسه سمع الدنا، وخبت الأصوات، فكان لوحده أمة بما ترك من مآثر ومفاخر، وبمن يمّموا من كل حدب وصوب، وبمن يأتمّ به، ويتخذه منارا وأسوارا..

والدلالة الثالثة هو أن كان في حياته فردا، تفرّد وصار في آخرته التي هو فيها حيّا مع النبيين والصديقين والشهداء أمة، بلحاظ أن الشاعر ربيب ثقافة تضعه في صميم تلك الدلالة، فمن مرويات تلك الثقافة أن «من قام بالحق فهو أمة ولو كان وحده» وأن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة) ، معناه: « أن الذي يقوم بإنكار المنكر وإقامة الحد فإنه يبعث أمة واحدة؛ لأنه قام بأمر لم يقم به غيره في ذلك الموقف.فالإنسان الذي يأتي بالحق ويتخلف الناس عنه يعتبر وحده أمة، كما أخبر جل وعلا عن إبراهيم أنه كان أمة؛ لأنه كان في ذلك الوقت وحده على الحق.» [٢]

فالإمام الحسين عليه السلام، لذلك، وطبقا لهذا، وبالإرتكاز إلى معين ثقافة الشاعر ومرجعياته الدينية، يكون أمة؛ والأمة، هنا، معناها جماعة، و« تَكُونُ وَاحِدًا إِذَا كَانَ يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ،[٣] وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:» إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ»[٤] .

ذلك أن بعضا من المرويات الإسلامية تصور أن الشخص المنفرد بدين، يبعث أمة وحده، أي يقوم مقام جماعة، في تفسيرها قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : «يحشر ذلك أمة وحده بيني وبين عيسى ابن مريم» ، حين سئل عن زيد بن عمرو[٥]، وكذلك في تفسيرها قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: « رَحِمَ اللهُ قُسًّا، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَبْعَثَهُ اللهُ أُمَّةً وَحْدَهُ»[٦].

والدلالة الرابعة: أنه عليه السلام حمل أعباء تكليف سماوي، واستشهد من أجله، طلبا لديمومة الدين الإسلامي، وهذه الدلالة تعمل بلحاظ ثمرة الثورة الحسينية، التي أوجزها غير أهل الإسلام بالقول أن الإسلام محمدي الوجود، حسيني البقاء فكان من بركاتها بقاء الإسلام في أمة جده صلى الله عليه آله وسلم، وبقاء الأمة الإسلامية.

حتى بحالة جرٍّ

ترى على النون ضمَّة

لا شك أن الشاعر كان يبذر في أسطره الفائتة محطتَيْ شدّ، قوامهما ما بثه الشاعر مما يفهم ظاهريا أنه لحن، وخطأ نحوي فاضح: (بعضُ الحسينُ) (ظلُّ الحسينُ)؛ وهاتان بؤرتا شد كانت تبحث لها عن نقطة تلق ترخي أعنتهما.. وبمعنى آخر أن ثمة خطأ شعري، يحتاج إلى من يقوم بتصحيحه، كي يكون الكلام شعريا؛ ذلك أن

متلقي هذا النص لا يفوته أن شاعره يتقن أدواته اللغوية، ليس لأنه قطع أشواطا في التزود من شهادات أولية وعليا في لغته ، بل لأنه شاعر عربي!

وإذا كان المتلقي غالبا هو من يقوم من خلال قراءته وتأولاته بردم فجواته، وإزالة توتراته، فإن النص هنا حمل زوادته ليقدمها للمتلقي مجيبا عن سؤاله.

إذن، فالحسين – ملفوظا- لا يقبل الجر، في كل حالاته، وهنا ستهدأ عندها أنفاس تلقيه المتسارعة بإزاء ما ظن أنه خطأ نحوي، وللمتلقي أن ينزاح عن مجاز النص إلى حقيقته، ويؤول ذلك على الحسين لا يقاد ولا يجر..

وبمعاينة الألفاظ، ينفتح أفق القراءة؛ ف(حتى) هنا تمنح مايكفي من تصور أن الحسين يستغرق كل الحالات الإعرابية وهو مرفوع، تعلوه ضمةٌ؛ ليس فقط حالات الرفع الإعرابية، ولا حالات الجر الإعرابية التي فاجأ التلقي بها مضموما، بل يستبطن ذلك ما سواه من حالاته الإعرابية التي سكت النص عنها وهي النصب التي تستغرقها العبارة الشعرية؛ فـ(حتى) هذه حرف عطف للغاية؛ إذ يشترك ما بعدها في الحكم مع ما قبلها.

وقد ترك عدمُ تشكيل لفظة (ترى ضمة) في النص، انثيالا رهينا بتوجهين: (تَرى ضمة) وفاعل الرؤية هو المخاطب وحده، وهو من يرى تلك الضمة، و(تُرى ضمة) وفاعل الرؤية هنا _ ولا أتحدث عن فاعل نحوي_ عموم القراء، بل أن الحال- مع هذا التوجيه الأخير- ليعدو هذا إلى تصوّر رؤيتها سواء أكتبت أم لم تكتب..

الخيرُ:_ حبُّ حسينٌ

وغير ذاكَ مذمَّةْ

سيعصف هنا بساحة التلقي استنكار : وهل الشر في حب غيره؟

أو : وهل حب غيره ليس من الخير؟

ومن هذا الـ(غير)؟

ذاك تأجيج للسؤال؟ ودعوات للنفي انزياح شعري ؟

ولنلاحظ أن الشاعر لم يرد أن ينسب حبّ الحسين إلى الخير؛ فهذه تقريرية أنآى روحا عن شعريته المعهودة، وألصق بالنثرية؛ فالراسخ قطعا أن حب الحسين من الخير لأنه مصباح هدى وسفينة نجاة، أي منجاة من النار، وحب الحسين ع من الخير لأن به يوفى أجر الرسالة، فصاحبها صلى الله عليه و آله وسلم لم يطلب أجرا عن رسالته سوى المودة في القربى، وحب الحسين ع من الخير لأنه من صميم الإيمان، وحب الحسين ع من الخير لأنه من حب الله سبحانه وتعالى، بلحاظ المرويات عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، من قبيل : أحب الله من أحب حسينا، و...

ولأن الشاعر أراد أن يخصّ الخير بتعريف مختزل ودال ومعبر عنه، فقد وجده في جزيئة من المثال، لا فيه كله، وهي حبّه في نفوس مريديه، بيانا وحسن بيان؛ فهي مثيل يضاهيه في الصفات التي عبّرت عنه مدونة العشق الحسيني، ويزيد عليها بما لا يحمد سرده في سياق نقدي أدبي...وكبيان لهذه المضاهاة اختزل تعريف الخير كله بهذا الحبّ. إذن فقد أطر الخير بتنظير جامع مانع هو حبه عليه السلام، وزاد على ذلك بأن جعل كل ما جاوز هذا الحب، أو سار بعكس تياراته، ولم يفقهه، في صميم ما يُذمّ عليه صاحبه، ويترك به مذموما بين الناس؛ ذلك أن المذمة لا تعني

الملامة فحسب، بل هي شكل من أشكال اللوم في الإساءة تحديدا، وهو خلاف كل محمدة [٧].

وليس في هذا مبالغة وإغراقا في الإدعاء، لانه بإيجاز دال يمثل كفة الصراع الإنساني ضد الشر، لذلك جعله عنوانا للخير بل تعريفا له.

وما إن يخف بريق شعرية هذا المفصل، حتى تتحفز شعرية أخرى مع المفصل التالي؛ حين يُظْهر النص وكأن عملية خلق الإنسان على وجه البسيطة مرت بمراحل كثيرة وتعاقبت عليها حقب كثيرة، وجغرافيات عديدة، ومرت بمخاضات عسيرة، وبمراحل تدرج، وإنضاج، وتطور، صور الشاعر فيها الخالق القدير مهموما بالسعي إلى الوصول إلى ذروة الكمال في الخلق، وحين خلق وجه الحسين تحقق الحلم الإلهي، بالوصول بالخلق إلى كمال الإنسانية؛ فهو الصورة المثال، والشكل الأبهى للتصوير الإلهي، والخلق المثالي لله أحسن الخالقين، لذلك فليس غريبا أن يكلل ذلك، بكرامة أن القرب من الذات الإلهية، والبعد عنها، رهين بالمسافة الفاصلة بين الإنسان والحسين عليه السلام؛ إن حبّاً فحُبّ، وإن خصومةً فخصومة.

ولا يظنّ ظانّ أن الشاعر نسي في لحظة الخطاب أن من يتحدّث عنه من بمستطاعه، وحده، أن يقول للشيء كن فيكون، خالق الخلق كله، رافع السماوات السبع بغير عمد، وممسكها أن تقع على الأرض، صنع الكون، وأحسن صنع كل شيء، فدلّ على عظمته وقدرته، وكمال إبداعه، تعالى الخالق البارئ المصوّر

فلا يظنّ ظانّ أن الشاعر نسي تحت سطوة لحظة حبّ، وأسر غلوّ، وجذب مغالاة، فأفرط أو فرّط!!

ولكنه أيقن تمام اليقين أن الحسين عليه السلام – فعلا وسلوكا وقولا- تجسيد لذلك الإبداع، وترجمان للقدرة، وتعبير حيّ عن كمال الخلق:

بخلق وجه حسينٌ

قد أكمل الله حُلْمَهْ

يصاحب الله صحبهْ*

يخاصم الله خصمهْ

وحين تتلبد سماء الإنسان بغيوم الشكّ، وحين تعصف به ريح التاريخ الذي خطّته اليد التي اختالت من الحسين ع جسده، وفصلت عنه الرأس الشريف، وحين تتناسل تلك اليد أيادي تلوّح للسارين بسرابها، وحين تطلى القرون بطلاء قاتم، وحين يستر الخداع المخدع، ...

ستكون بالشاعر هو الآخر، وعلى شاكلة الجواهري، حاجة إلى أن يزيح الطلاء، وستر الخداع أملا بالوصول إلى الحقيقة الناصعة

وتغدو الحاجة ملحة إلى من يقدم النصح!، فليتمسه الشاعر عند الحسين شاهدا، وشهيدا:

يا ابن النبوَّة هبني

نصحاً، فصمتُكَ حكمة

يا مثل جدِّك روحاً

ومثله جئت رحمةْ

المجد كلمة حقٍّ

وأنت حقٌّ وكلمةْ

وإذا كان تاريخ خصوم الحسين قد كتب، وملأت أصواته أركان الدنيا ضجيجا، فإن الشاعر لم يجد في صفحاته أجوبة اسئلته الشائكة، لكنه وجدها عند من أرادوا إسكاته، فيما عكسه من حكمة، ولأنه صوت حقٍّ لن يعلو عليه صوت، ولأنه صوت الحكمة والعقل فقد خَلُد، و مَجُد..

إيمانا منه بأن رسالة المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم، أعادت إنتاج نفسها لأنها سماوية، على هيأة الحسين الموصوف بـ(رحمة الله الواسعة) و (باب نجاة الأمة):

يا نور بيت عليٍّ

وليس في البيت عتمةْ

نوراً على النور تبقى

يا أطهر الناس ذمَّة

لا تغمضِ العين حتى

لا يصبحَ الكون ظلمةْ

في أجواء التيه، ونشدان الدليل، يبرز التشبث بالحسين عليه السلام، بوصفه نور هداية، وسبيل نجاة، لذا تُظهر اللغة الحاجة الماسة إلى النور في أجواء أطبقت عليها العتمة والإغماض والظلمة، فتلتمس عنده الإشراق، وكي لا تغمط سائر أدوار المُـشَـرَّفِين بإعادة إنتاج الرسالة المحمدية التي نهضت بها العترة المطهرة، جنّبتهم الانضواء تحت مظلة المستثنى منه؛ فهم جميعا نور يضج بأركان البيت، وهو بهم نور على نور، لكنه بينهم الأظهر في هذا السياق؛ كونه شمس الشهادة وعرسها

ولأنه الحقيقة الإنسانية الأنصع، والصورة الأبهى، ولأنه أطهر الناس عهدا وحرمة ومروءة، سيختزل النص النور كل النور بوجوده، وإن أفول سنين عمره الدنيوي سيطبع الكون بالظلام، وستأفل نجومه، وتغيب أقماره وشموسه

سيكون النص أمام مفصل تكميلي هو ترجمة حال الشاعر الذي وقع فريسة التردد بين نقائض وأضداد، فلم يكن ليستطيع أن يرجح هذا الطرف على ذاك، بسبب تساوي الإطراف، وانعدام قدرته على الاختيار، وهكذا فإن ما يصل إليه من معرفة سرعان ما تتهاوى بسرعة، لأنها غير يقينية، وإنه في كل تجربة سيهدم ما يبنيه ، وسيكون على شفا جرف هار، وسيودي به الى الإنهيار... ولن يبق أمامه سوى مصباح الهدى ، وكأنه النور الرباني الذي سيساعده على أدراك الحقيقة، ولأن المرايا كانت الأداة الأولى في معرفة الإنسان بنفسه، واكتشافها لملامحه، استحضرها النص:

مولاي وجهي مرايا

فاعطِ الملامح بسمةْ

والقلب دربُ رعاةٍ

واختارك الناي نغمة

أعداؤك اليوم عارٌ

ونــاصروك أئمة

لذلك سيغدو هو دون غيره من تقذف معرفته النور في قلبه، وكأن الشاعر ذلك الصوفي الذي توهج النور الإلهي في قلبه، جراء وصوله إلى اليقين، وسيجعل محصلة ذلك أنه كذلك حتى حين يكون التأمل بعيدا عن المُلْكُ، وهو عالَمُ الشَّهادةِ من المَحْسوساتِ الطّبيعيّة، لينفتح على المَلَكُوت، الذي هو عالم المثال، أو هو عالَمُ

الغَيْبِ الْمُخْتَصُّ بأَرْوَاحِ النُّفُوسِ[٨] ، فالنص في حالتيه لن يتخذ من دليل إلى ذلك إلا الحسين عليه السلام، فهو نجمته، وليس سواها من نجمة تكون له دليل هدايا امتصاصا للمعنى القرآني (وبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)[٩]

الملكـوتُ سماءٌ

وليس غيرك نجمةْ

وللمتلقي أن يسوح في رحلة كشف شعرية هذا الحصر الذي يقصر الحكم على الإمام الحسين عليه السلام من دون سواه، وعليه وهو يصطدم بهذا، أن يعيد إلى التلقي هدأته، ويصحح في الشعر خطأه المقصود، وينفي انزياحه بعد عرضه؛ فَـلِـمَ صار الحسين نجمته الوحيدة، من دون سائر من أوكل إليهم الخالق عز وجل إعادة إنتاج رسالته السماوية السمحاء!!

ذاك سؤال، ودونه أجوبة، لا جواب!

هي إذن سفر بمفاصل تكاد تكون بعدد محطات جمله، و أبياتها، ما إن يخفت انجذاب التلقي صوب أولاها، حتى تعصف به أخراها، فيكون في جذب وشد، وشد وجذب حتى لا يهدأ للتلقي دأب، ولا تسكن حركة.

ولأن الشاعر تحت ضغط الانبهار بشخصية ملأت أركان عقله، وجنبات روحه، كونها حققت حلم الإنسانية الجميل، حين بذلت من التضحيات الجمة في درب طاعة الله وصلاح دينه ما لم يقدمها أحد من الأولين والآخرين، فأورثته ما يبلغ به الغاية في سموّ المنزلة، وبلغت به ذروة الكمال الإنساني، مما يتعسّر معه كمال

الوصف، بحيث يغدو مطمح الإحاطة بل الاقتراب من كنهها -نثرا أو شعرا- حديث خرافة!!

ولعل لقارئ أن يرى أن ذلك الضغط، وهذا العسر حريّان بأن يسوغا للنص وقوعه فريسة تقابل يبدو فجّا لا يليق بذات مقدسة، ولا ينسجم مع صفاتها، ولعلّ آخر يرى أنه معطى للحظة رهيبة يعيشها الشاعر مع الحسين عليه السلام:

ماذا وأنت حسينٌ

وشسعُ نعلكَ قمَّةْ

فعند هذه اللحظة، وبها، ينفد ما عند الشاعر، ويظل ما عند الحسين عليه السلام،... تصاغر ما قد قيل أمام كِبَر مَن قيل فيه، وكأننا بالشاعر يطأطأ رأسه أمام الرفعة والشموخ، فلا يعود يبصر منها شيئا، وتنحسر الرؤية خجلا وتهيّبا إلا بمقدار ما يبصره المطأطئ بين قديمه.

١- قصيدة (الحسينُ): حمد محمود الدوخي، مجلة الأقلام ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العدد الرابع/ ٢٠١٠، ص ٧٩ـ٨٢.

٢- شرح كتاب التوحيد: عبد الله بن محمد الغنيمان، نقلا عن دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، http: / / www.islamweb.net، و رقم الدرس – ١٤٢.

٣- الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط ٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م ، ج ٢ ص١٢٧.

٤- سورة النحل آية ١٢٠.

٥- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان،الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م، ج ٢ ص١٨٥.

٦- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٠٥ هـ، ج ٢، ص١١٣.

٧- ينظر : لسان العرب، مادة ذم .

٨- تاج العروس مادة شهد .

٩- من الآية ١٦النحل .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، دولة الكويت.

الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية - القاهرة ، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٥ هـ.

سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان،الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

شرح كتاب التوحيد: عبد الله بن محمد الغنيمان، نقلا عن دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، http://www.islamweb.net، و رقم الدرس - ١٤٢.

قصيدة (الحسينُ): حمد محمود الدوخي، مجلة الأقلام ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العدد الرابع/ ٢٠١٠.

لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١، د.ت.